العنوان:	طبيعة مفهوم الكلام و وظيفته
المصدر:	عالم الفكر
الناشر:	المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
المؤلف الرئيسي:	الداهي، محمد
المجلد/العدد:	مج 32, ع 4
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2004
الشهر:	يونيو
الصفحات:	243 - 273
رقم MD:	137517
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, EcoLink
مواضيع:	المصادر التاريخية، علم الكلام، التواصل اللفظي، الحضارة العربية، القرآن الكريم، الحديث الشريف، التاريخ العربي، الفكر الفلسفي، اللسانيات، الغرب، الكلام الروائي، الحرب الكلامية، الجوانب الوظيفية، وسائل الإعلام
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/137517

طبيعة مفهوم الكلام ووظيفته

أ. محمد الداهي(*)

تمهيد:

أصبح مفهوم الكلام يستأثر باهتمام مختلف الحقول المعرفية المعاصرة؛ وذلك ليس باعتباره فقط وسيلة للتواصل، وإنما بوصفه كذلك عددا من الأدوار المحتملة، وعاملا من عوامل تطويع المتلقي وكسب ثقته ومودته (الميثاق التلفظي والاستيثاقي fiduciaire).

وأسهمت الثورة الإعلامية في ترسيخ هذه الوظيفة التطويعية (manipulatoire) للكلام داخل المجتمع. وعليه أصبح المتكلم لا يراهن فقط على إيصال أفكاره إلى المتلقي، بل كذلك إلى تغيير معتقداته والاقتناع بما يتلقاه. وبما أن هذا الأخير لا يتلقى الكلام بسلبية، بحكم مؤهلاته الفكرية واللغوية وخلفياته المعرفية؛ فهو يمارس التطويع المضاد (anti-manipulation) حتى يتجنب الوقوع في شَرَك محدثه، ويشعره باستقلالية فكره وآرائه.

نخصص هذه الدراسة لاستكناه مفهوم الكلام، وإبراز معانيه ومنازله وهويته في بعض المجالات والاختصاصات المعرفية والثقافية (أكانت عربية أم غربية)، وإعادة الاعتبار له بعد أن تراجع النزوع المحايث الذي ارتكزت عليه البنيوية.

١ - الكلام في الحضارة العربية

١ - القرآن الكريم:

إذا استقرأنا القرآن بوصفه المصدر الرئيسي للثقافة العربية الإسلامية، نجده متضمنا للفظة الكلام ومشتقاتها ومترادفاتها (على نحو القول واللغو). ولا يتسع المجال هنا لعرضها كلية. وحسبنا في البداية أن نرسم جدولا يحوي بعض الآيات التي ذكر فيها الكلام والقول واللغو، ثم سنحاول أن نستنتج منها ما تتضمنه كل لفظة من معان.

(*) كاتب وباحث مغربي.

الكلام ومشتقاته	القول	اللغو
﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ البقرة ٢٥٣. ﴿ولو أنَّ قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا﴾ الرعد ٣١. ﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾ النساء ١٦٤. ﴿ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور﴾ الشورى ٢٤. ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ الزخرف ٢٨. ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما﴾ الفتح ٢٦. ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾ البقرة ٧٥. ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ الأعراف ١٤٤. ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ النساء ٤٦.	﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ ق١٨. ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ الذاريات ٨. ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ المجادلة ١١. ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ المدثر ٢٥. ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ الممتحنة ٤. ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾ النمل ٨٥. ﴿إنه لقول فصل وما هو بالهزل﴾ الطارق ١٣، ١٤. ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ يس ٧. ﴿إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم داية من الأرض تكلمهم ١٣، ١٤﴾ النمل ٨٢.	﴿يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ الطور ٢٣. ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ المؤمنون ٣. ﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾ الفرقان ٧٢. ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ القصص ٥٥.

الجدول (١): مشتقات الكلام ومترادفاته)[1].

يتضح من خلال العمود الأول أن بعض مشتقات الكلام التي وردت في القرآن (كلم، تكليما، كلمة، كلمات، الكلم) جاءت مقرونة بالذات الإلهية، ومبينة أن من صفاته الكلام الذي لا يحتاج إلى واسطة. وهو الكلام الحقيقي الذي يكون به المتكلم متكلما. لكن الله لم يكن يتكلم على الحقيقة إلا مع صفوة من الأنبياء، وخاصة مع آدم ومحمد وموسى. وفي هذا الصدد يرى الغزالي «أن موسى - عليه السلام - سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف، كما يرى الأبرار ذات الله - سبحانه - من غير جوهر ولا شكل ولا لون ولا عرض»[٣]، ويقول ابن جني: «ولا خلاف بين الأمة أن المسموع في المحاريب كلام الله تعالى على الحقيقة، والجواب عن هذا أن إضافة الكلام إلى المتكلم إن كان الأصل فيها أن تكون من فعله، فقد صار بالتعارف يضاف إليه إذا وردت مثل صورة كلام»[٣]. وقد تضمنت كلمات الله نصائح وعبرا للإنسان لعله يتذكر ويتوب إلى جادة الصواب، ويعبد الله وحده لا شريك له. وبالجملة، يدل كلام الله وكلم الله وكلماته وكلمته على القرآن، وكلام الله لا يحد ولا يعد. وفي الحديث: «أعوذ بكلمات الله التامات»، وقيل هي القرآن. ولا يقال قول الله بل كلام الله، لأن الكلام يعني ما كان مكتفيا بنفسه وتاما ومفيدا، في حين أن القول ما لم يكن مكتفيا بنفسه[٤].

وبرجوعنا إلى مختلف السياقات التي وردت فيها لفظة القول، يتبين أنها تعني من جهة ما يتلفظ به بنو آدم، وما يصدر عنهم من كلام يتحملون مسؤولية سقطاته وتبعاته، لأن الله سميع بصير، كما أن أي كلمة يتلفظون بها يوجد من يرقبها ويكتبها. ونجد توكيدا لهذا في قوله تعالى ﴿وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ الانفطار، ١١. وتعني من جهة أخرى من حق عليهم القول أي من حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب الغضب عليهم. ويحفل القرآن بمختلف الصيغ الصرفية لفعل قال (قال، قالا، قالت، قالتا، قلن، قلنا، لنقولن، تقل، يقول، قلت، قلتم)، وهو ما ترتبت عليه كثرة أصناف القائلين. قد يكون الله أو العباد أو الكفار أو الملائكة أو الأنبياء، وقد تكون امرأة أو طائفة أو ثلة من المؤمنين أو الظالمين.

ترجع لفظة اللغو إلى جذرها اللغوي «ل.غ.ي»، وهو يعني ما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع. وقال الأصمعي: ذلك الشيء لغو ولَغاً ولَغْوي، وهو الشيء الذي لا يعتد به. وقال الأزهري: واللغة من الأسماء الناقصة، وأصلها لغُوة من لغا إذا تكلم. وقال الشافعي: اللغو في لسان العرب الكلام غير المعقود عليه[٥]. ويعني اللغو في المثاني التي ورد فيها رفث الكلام وفارغه وقبيحه، والهذيان، والباطل، والزور.

ومن خلال مختلف السياقات التي وردت فيها الألفاظ الثلاثة ومشتقاتها، يتبين أن كل كلمة متلفظ بها إلا وتصدر عن متكلم حقيقي يتحمل تبعتها نظرا لوجود كاتبين كرام يرصدونها ويكتبونها، ولعلم الله بذات الصدور. كما أن الله كلم صفوة من أنبيائه تكليما، وأنزل كلماته لتوجيه الخلق إلى الصراط المستقيم. وهكذا يحتمل الكلام وظيفتين: فهو

- من جهة - موجه من الله إلى عباده للنهي عن الكلام القبيح وفي ما لا يعنيهم، والاقتصار على المهم، ففيه النجاة[٦]. وهو - من جهة أخرى - موجه من العباد إلى الله للتضرع والاستغاثة والحمد والهداية.

٢ - الحديث الشريف:

بعد تفحص مختلف الأحاديث النبوية المتعلقة بالكلام، يتضح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يذم كثرة الكلام وتشقيقه وتخلله والتقعر والتشديق والتفيهق فيه[٧]، وبالمقابل كان يطري طول الصمت، وحفظ اللسان واستقامته، والصدع بالمعروف والحق.

ومن ثمة يتبين أن وظيفة الكلام اتخذت بعدا أخلاقيا صرفا، فهي إما أمر بمعروف أو نهي عن منكر وإما التلفظ بالأغاليط وتشقيق الكلام والخوض فيما لا يعني.

٣ - المصادر العربية القديمة

أ - ابن جني:

تعني مادة (ك-ل-م) - على حد تعبير ابن جني - من حيث تقلباتها الدلالية القوة والشدة. والمستعمل منها خمسة، وهي: (ك-ل-م) و(ك-م-ل) و(ل-ك-م) و(م-ل-ك)، وأهملت منه (ل-م-ك) فلم تأت في ثبت. والكلام هو جنس الجمل التوأم دون الآحاد، والكلام اسم من فعل كلّم المشتق من مصدر التكليم. ويعني به ما كان مكتفيا بنفسه وهو الجملة، أو بعبارة أخرى هو جماع من الأصوات التامة المفيدة. أما القول فهو ما لم يكن مكتفيا بنفسه وهو الجزء من الجملة. وقال الجوهري: الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير، والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة مثل نِبْقة، نَبِقٌ[٨].

ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا القرآن كلام الله ولا يقال: القرآن قول الله؛ وذلك أنه موضع ضيق متحجر، لا يمكن تحريفه ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه. فعبر لذلك عنه بالقول الذي قد يكون أصواتا مفيدة وآراء معتقدة. وأخرج الكلام هنا مخرج ما قد استقر في النفوس، وزالت عنه عوارض الشكوك. وهكذا يتبين أن القول يعني ما نقص وما يستدعي الاعتقاد والرأي والإسراع والخفة، أما الكلام فهو الجمل المستقلة بأنفسها، الغانية عن غيرها، المستوفية حقها من التمام والإفادة، والدالة على الشدة والقوة. وإن كان كل كلام قولا، فالعكس ليس صحيحا[٩].

ب - ابن سنان الخفاجي:

تطرق ابن سنان الخفاجي[١٠] إلى حد الكلام وحقيقته تمهيدا للكشف عن سر الفصاحة المقصورة عنده على الألفاظ في حسنها وتلاؤمها سواء أتجلت في تأليف اللفظة المفردة أم الكلام، ولاتخاذ موقف من الفريقين المتجادلين في أمر إعجاز القرآن. وقبل تخصيص فصل

الكلام عرف بالأصوات والحروف وبين صفاتها ومخارجها. ويعرف الكلام بأنه «ما انتظم من حرفين فصاعدا من الحروف المعقولة إذا وقع ممن تصح عنه أو من قبيله الإفادة»(١١). وهكذا يتبين أنه يشترط في الكلام الانتظام الذي لا يتم إلا بتوالي حرفين على الأقل، فلو أتى بحرف ومضى زمان وأتى بحرف آخر لم يصح وصف فعله بأنه كلام، ولا يتم الانتظام إلا بالحروف المعقولة التي تصدر عمن تصح منه الإفادة أو من قبيله، ويستثنى منها أصوات الحيوانات والجمادات. ويشترط القبيل دون الشخص، لأن ما يتلفظ به المجنون يوصف بأنه كلام. وإن لم تصح منه الإفادة، فهي تصح من قبيله، وليس كذلك الطائر وما يجري مجراه (سائر الحيوانات والجمادات). وقد ألزم هذا الحد صاحبه أن اعتبر الأخرس متكلما، وإن احترز البعض من ذلك مشترطا انتظام حرفين مختلفين، وهو ما لا يقع من الأخرس. ولا يشترط ابن سنان الإفادة في الكلام على ما ذهب إليه سيبويه وغيره من أهل النحو، بل يرى أن العرب مجمعون على تسمية الكلام المفيد وغير المفيد بأنه كلام. ويتعلق الكلام بالمعاني والفوائد بالمواضعة، ولهذا جاز في الاسم الواحد أن تختلف مسمياته لاختلاف اللغات، وهو بعد وقوع التواضع يحتاج إلى قصد المتكلم واحترامه لما قررته المواضعة حتى لا يخل بعمليات التواصل مع البشر.

ويعتبر ابن سنان الخفاجي الكلام صناعة من الصناعات التي لا تكتمل إلا بتوافر خمسة أشياء. وهي تتكون في حالة صناعة تأليف الكلام مما يلي:

- الموضوع: وهو الكلام المؤلف من الأصوات.
- فأما الصانع: وهو المؤلف الذي ينظم الكلام بعضه مع بعض، كالشاعر والكاتب وغيرهما.
- وأما الصورة: فهي كالفصل للكاتب والبيت للشاعر، وما جرى مجراهما.
- وأما الآلة: فأقرب ما قيل فيها إنها طبع هذا الناظم، والعلوم التي اكتسبها بعد ذلك.
- وأما الغرض: هو بحسب الكلام المؤلف والغاية المتوخاة منه(١٢).

وإن لم يخصص الخفاجي في كتابه تمييزا واضحا بين الكلام واللغة، فهو قد أفرد لكل طرف فصلا خاصا. وهذا ما يؤشر ظاهريا إلى أنه تقصد الفصل بينهما. ولما نمعن النظر في كل طرف على حدة يتبين أنه أعطى لكل واحد منهما تعريفا خاصا ومنزلة خاصة. أما حد اللغة «فهي عبارة عما يتواضع عليه القوم من الكلام، أو يكون توفيقا، وتجمع لغة على لغات، ولُغين ولُغون، وقد قيل في اشتقاقها: إنها مشتقة من قولهم لغيت بالشيء إذا أولعت به وأغريت به، وقيل: بل هي مشتقة من اللغو، وهو النطق، ومنه قولهم: سكتت لواغي القوم أي أصواتهم، ولغوت أي تكلمت، وأصله على هذا لغوةٌ»(١٣). ويرجح ابن جني الرأي الذي يرى أن اللغة مواضعة وليست توقيفا ربانيا. «والصحيح أن أصل اللغات مواضعة، وليس بتوقيف، وإنما أوجب ذلك لأن توقيفه تعالى يفتقر إلى الاضطرار إلى قصده»(١٤). وفي معرض بيانه لفضل اللغة العربية وتقدمها على سائر اللغات، يتضح أنه يخصص اللغة للحدث اللساني المتعارف

على نواميسه وقواعده وألفاظه، ويتصف بالشمولية والتجريد، ويهم جنسا بعينه أو أمة برمتها. أما الكلام فيرتبط بمن يحدث فعل الكلام (الإنجاز)، ويحتاج إلى قصده وإرادته واعتقاده وغير ذلك من الأمور الراجعة عليه حقيقة أو تقديرا، ويتطلب استخدام ما قررته المواضعة، والتحرز من تنافر متصله ومنفصله، واجتماع اللب عند النظم والتأليف.

ج - ابن وهب الكاتب:

وبتصفحنا لكتاب ابن وهب الكاتب يتبين أنه يستخدم إلى جانب مفهوم الكلام مفهومي العبارة واللغة، وهذا ما يقتضي توضيح المفاهيم الثلاثة لرفع اللبس، وبيان الفروق الدقيقة بينها، وتحديد المقصود من الكلام. إن البيان بالقول هو العبارة، ويختلف باختلاف اللغات، وإن كانت الأشياء المبين عنها غير مختلفة في ذواتها، وإن منه ظاهرا وباطنا. ولا يحتاج الظاهر منه إلى تفسير، في حين أن الباطن محتاج إليه بالقياس والنظر. وتحوي اللغة العربية أقساما وأحكاما تتطلب من المتكلم تمثلها وتفهم معانيها إن هو أراد بلوغ مراده. ومنها ما هو عام للسان العرب وغيرهم، ومنها ما هو خاص له دون غيره، ويجمع ذلك في الأصل: الخبر والطلب. والخبر كل قول أفدت به مستمعه ما لم يكن عنده، ويتفرع إلى جزم ومستثنى وشرط. أما الطلب، فهو كل ما يطلبه الطالب من غيره، ومنه الاستفهام، والنداء، والدعاء، والتمني. فهذه بعض أقسام العبارة التي يتساوى أهل العلم بها، فأما العرب فلهم استعمالات أخرى من الاشتقاق، والتشبيه، واللحن، والرمز، والصرف، والمبالغة، والقطع، والعطف، والتقديم والتأخير، والاختراع[١٥]. وينقسم الكلام قسمين: تام وناقص. فالتام ما اجتمعت فيه أقسام العبارة فكان بليغا صحيحا، وجزلا فصيحا، وكان جدا صوابا وحسنا حقا، ونافعا صدقا، وعند ذوي العقول مقبولا، ولم يكن تكلفا ولا فضولا. في حين أن الناقص ما قصر عن هذه الأقسام، وكان معيبا عن ذوي الأفهام[١٦].

مما تقدم يتضح أن العبارة تعني طريقة التعبير عن الأشياء، وهي تختلف باختلاف اللغات، في حين تظل الأشياء المعبر عنها هي نفسها، ويرى ابن وهب أن سائر العبارة، من حيث تأليفها، إما أن يكون منظوما وإما منثورا. وتعني اللغة جماعا من الوجوه والأقسام والأحكام الخاصة بجنس معين (على نحو العرب)، تتطلب من مستعملها تمثلها واستنباط ما يدل عليها إن هو أراد إدراك مبتغاه. ويأتي دور الكلام لإخراج تلك المعايير اللغوية من حيز القوة إلى الفعل، ولا يستوفي الكلام التام حقه على نحو يجعله ينتزع الشرعية من ذوي العقول إلا بعد توافر جملة من الشروط كالبلاغة، والفصاحة، والصدق، والجد، والإفادة. وما قصر عن هذه الشروط كان بادي النقص والعيب عند ذوي الأفهام، ومذموما عند ذوي التحصيل.

د - ابن خلدون:

يحشر عبدالجبار القاضي وابن خلدون الكلام في عداد الصنائع كالبناء وغيره. ومرجع ذلك عند عبدالجبار أن المتكلم لا يصح منه الحدث الفعلي للكلام إلا بتوافر القدرة والعلم، وهو ما يستدل عليه بمفارقة من تتأتى منه العبارات لمن تتعذر عليه. ويدقق عبدالجبار هذا الشرط المزدوج في موطن آخر حين يقرر أن الكلام من جملة الأفعال المحكمة التي لا تصح إلا من العالم بكيفيتها والمطلع على شبكة مواضعاتها. ويضاف الكلام بوصفه فعلا وحدثا إلى فاعله على جهة الفعلية[١٧].

ويعد ابن خلدون الكلام صناعة كسائر الصناعات التي تتطلب من صاحبها الدربة والتعلم والاتقان. فإما يجود أو يقصر بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وإذا تمكن المتكلم من الملكة التامة في تركيب الألفاظ ومراعاة مقتضى الحال، بلغ حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وتتطلب ملكة الكلام حسن الإصغاء لتمثل المفردات، والتفطن لخواص التراكيب، ومداومة الاستعمال إلى غاية أن تصبح ملكة وصفة راسخة. ويتفرع الكلام العربي إلى فنين في الشعر والمنظوم. ويشتمل كل واحد منهما على فنون ومذاهب[١٨].

نكتفي بهذا النزر اليسير من التعريفات التي تعطينا تصوراً عن حد الكلام ومنزلته في التفكير اللغوي عند العرب. وهكذا يتبين لنا أن حد الكلام يختلف عن حد اللغة وإن كان يتفاعل معه ويتداخل إلى حد التماهي. ومن الفروق الظاهرة أن اللغة تحتوي الكلام على نحو احتواء الكل الجزء. فاللغة هي جماع من المعايير والوجوه والنواميس التي لا تدرك تمامها إلا بتكامل أنسجة المواضعات فيها. وبذلك تختلف اللغات وإن بقيت الأشياء المعبر عنها محافظة على مداليلها، وغير مختلفة في ذواتها. وإذا كانت للغة صفة الابتداء أو التواضع فللكلام صفة الاحتذاء أو الحكاية. فالكلام يتحدد أساسا على مستوى الإنجاز والتصرف بوصفه جماعا من الحروف والأصوات المتآلفة المنتظمة المتعاقبة المعقولة الموقعة للإخبار، والإفادة، والاستفادة، والإفهام، والتفهيم، والتفاهم، والتعبير، والتعريف، والتواصل... إلخ[١٩]. ومن الأفعال المحكمة التي تتطلب جملة من الشروط على نحو التعلم والممارسة والدربة والحفظ. ولا يستوفي الكلام حقه من التمام، ولا ينتزع اعتراف الآخر به (منحه الشرعية) إلا إذا وعب جملة من الشروط، منها ما يتعلق بالتركيب (جودة التأليف، وحسن التآلف)، ومنها ما يرتهن بالبعد الأخلاقي (الصدق، والجد)، ومنها ما يراهن على توقع المتلقي وتنظره (إجازة الكلام وإطراؤه). ومن جملة الخصائص النوعية التي يستدعيها خروج الكلام من تصوره النظري المجرد إلى بنية الحدث المنجز، نذكر منها على وجه الإجمال ما يلي: ارتهان الكلام بالمكان وقيد الزمن، واتسامه بالشمول (استيعاب إفرازات الوجود) والهوية (استضمار جملة من الحقائق الداخلية) والاضطرار (الطبيعة التسلطية والنفاذ التحكمي للإبلاغ والتواصل)، ووجود رابط الفاعلية بين المتكلم وكلامه[٢٠].

ويختلف الكلام باختلاف فاعله ومؤلفه، وبحسب معرفته لوجوه اللغة وأحوالها وعلومها، وقدرته على التصرف والاحتذاء والحكاية فيما تم إقراره مواضعة وتواطؤا، وسعة كفايته المعرفية. «وبالجملة إن مؤلف الكلام لو عرف حقيقة كل علم واطلع على كل صناعة لأثر ذلك، في تأثيره ومعانيه وألفاظه، لأنه يدفع إلى أشياء يصفها، فإذا خبر كل شيء وتحققه كان وصفه له أسهل ونعته أمكن، إلا أن المقصود في هذا الموضع بيان ما لا يسعه جهله دون ما إذا علمه أثر عنده علمه، فإن ذلك لا يقف على غاية»[٢١].

٢ - الكلام في الفكر الفلسفي - اللساني الغربي

أ - اتجاهان لسانيان:

اختزل ميخائيل باختين كل الدراسات التي تناولت مفهوم الكلام أو مفهوم اللسان قبل ظهور كتاب «محاضرات في اللسانيات العامة» لفرديناد دي سوسير F.Saussure إلى اتجاهين[٢٢]:

١- **اتجاه الذاتية المثالية**: يركز هذا الاتجاه اهتمامه على فعل الكلام أو الإبداع الفردي بوصفه أساسا للسان. وما قوانين الإبداع اللغوي سوى قوانين فردية - نفسية. وتنحصر المواقف الأساسية لهذا الاتجاه في الاقتراحات الأربعة التالية:

أ- اللسان نشاط، سيرورة بناء إبداعية متواصلة (طاقة فاعلة energia) تتجسد في أفعال الكلام الفردية.

ب- إن قوانين الإبداع اللغوي في جوهرها قوانين فردية - نفسانية.

جـ- الإبداع اللساني إبداع معقلن مشابه للإبداع الفني.

د- تبدو اللغة، باعتبارها نتاجا ناجزا (eregon)، نظاما قارا جاهزا للاستعمال.

ومن بين اللغويين الذين أرسوا دعائم هذا الاتجاه، نذكر على سبيل المثال فيلهلم هامبولدت W.Von Humboldt، و أ.أ بوتبينا Potebina وتلامذته، ثم طورته فيما بعد مدرسة فوسلر Vossleer (الفيلولوجيا المثالية) التي ترفض رفضا قاطعا الاتجاه الوضعي في اللسانيات (اللسانيات ناتجة عن الفعل النفسي الفسيولوجي)، وتقر بأن الفعل الإبداعي الفردي يشكل الظاهرة الأساسية والواقع الأساسي للسان، لأنه يعمل على تغيير وتنويع صيغه وأشكاله المجردة، ويتعلق بالتنفيذ الأسلوبي.

٢- **اتجاه الموضوعانية المجردة**: يرتكز هذا الاتجاه على النظام اللغوي، أي ما يتعلق بالصيغ الصوتية والنحوية والعجمية للسان. وَحَدَّ اللسان جماع من السمات المتماثلة في التلفظات، كلها، والضامنة لوحدانية نسقه وفهم الجماعة البشرية له ويرتكز هذا الاتجاه على الاقتراحات التالية:

أ- اللسان نظام ثابت من الأشكال اللسانية الخاضعة لمعيار يتسلمه الوعي الفردي، كما هو بكيفية إجبارية.

ب- إن قوانين اللسان في جوهرها، قوانين لسانية من نوع خاص تقيم روابط بين الأدلة اللسانية داخل نظام مغلق، وتكتسي صبغة الموضوعية بالنسبة إلى كل وعي ذاتي.

ج- لا علاقة للروابط اللسانية الخاصة بالقيم الأيديولوجية. كما لا يوجد أي حافز أيديولوجي في أساس الوقائع اللسانية.

د- ليست أفعال الكلام الفردية بالنسبة إلى اللسان سوى انحرافات أو تنويعات عارضة بل مجرد تشويهات لصيغ معقدة. لكن أفعال الكلام هي التي تفسر التحول التاريخي الذي يحدث في صيغ اللسان. ولا توجد بين نظام اللسان وتاريخه علاقة، إذ إنهما غريبان عن بعضهما.

يستمد هذا الاتجاه وجوده من الاتجاه العقلاني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ويضرب بجذوره في التربة الديكارتية. وأول من غيَّر أفكاره بكيفية واضحة، هو ليبنتز في نظريته عن النحو الشمولي الكوني.

مما سبق يتضح أن ثنائية اللسان والكلام أثيرت قبل ظهور سوسير بسنوات عديدة، وميزت بين اتجاهين متناقضين في أطارحهما اللسانية. فكل اتجاه ركز على اللسان من منظور مختلف. فالاتجاه الأول يعتبره سيلا متواصلا من أفعال اللغة، لا يظل فيه أي شيء ثابت أو محافظ على هويته. أما الاتجاه الثاني، فيعتبره جماعا من السمات الصوتية والنحوية والمعجمية المقعدة بالنسبة إلى كل التلفظات والأقوال. فبالنسبة إليه، لا تحدث التنويعات الفردية أي أثر في الهوية المقعدة لوحدانية النظام، لكنها تهم من جانب، تفسيرها للتحول التاريخي المحدث في صيغ الأشكال.

فردينان دي سوسير:

لما ظهر كتاب «محاضرات في اللسانيات العامة» أحدث ثورة كوبرنكية في مجال المعرفة الإنسانية بصفة عامة، وما زال مفعولها مستمرا حتى الآن. وقد بين فيه سوسير أن اللسانيات ينبغي أن تحدد موضوعها الخاص، وتحدث قطيعة مع المراحل اللغوية الثلاث (النحو وصفه مادة معيارية، والفيلولوجيا، والنحو المقارن أو الفيلولوجيا المقارنة)[٢٣]، وتنزاح عما هو خارجي عنها (اللسانيات الخارجية)، وتتميز عن العلوم الأخرى، وتبرز ما تمتاز به من خصوصيات. ويرى ميخائيل باختين أن أفكار سوسير هي امتداد لاتجاه الموضوعانية المجردة الذي يغلب نظام الصيغ (اللسان) على التحدث الفردي (الكلام)[٢٤]. ويضع سوسير تمييزا دقيقا بين ثلاثة أطراف (اللغة، واللسان، والكلام)، متوخيا منه تحديد الموضوع الوحيد للسانيات بوصفها علما مستقلا عن العلوم الأخرى، والبحث عن المبدأ الموحد داخل مجموعة من الظواهر اللغوية المختلطة والمتنافرة:

أ - اللغة هي متعددة الأشكال ومتنافرة، تتوزعها مجالات عديدة (فيزيائية، وفسيولوجية، ونفسية)، ويتداخل فيها ما هو اجتماعي وفردي.

ب - اللسان ذو طبيعة متجانسة، وموضوع محدد جدا داخل مجموعة من الوقائع اللغوية المتنافرة ونظام من الأدلة المعبرة عن أفكار. وهو المبدأ الموحد الذي كان يراهن عليه سوسير لتحديد موضوع اللسانيات، وتمييزها عن العلوم الأخرى، وبالتالي اعتباره معيارا لكل التجليات والمظاهر اللغوية الأخرى. والواقع أن اللسان يبدو وحده قابلا للتعريف، ويحدد تحديدا مستقلا، ويشكل سندا مرضيا للعقل.

ج - الكلام فعل فردي صادر عن إرادة وذكاء المتكلم، وينبغي التمييز فيه بين التركيبات التي يستخدم فيها المتكلم شفرة الكلام بهدف التعبير عن أفكاره الشخصية، وبين الآلية النفسية-الفسيولوجية التي تمكنه من إخراج هذه التركيبات.

ويرى سوسير أن اللسانيات يمكن أن تحتوي - إلى حد ما - كل ما يتعلق بلسانيات اللسان وبلسانيات الكلام. وإن كان من الملائم التحدث عن لسانيات الكلام، فلا ينبغي خلطها باللسانيات بما يحمله هذا المفهوم من معنى، أي اللسانيات التي تنكب على موضوع وحيد، وهو اللسان. ويتبنى سوسير هذه اللسانيات الأخيرة، لكنه يعد بأنه من الفينة إلى الأخرى سيسلط مزيدا من الأضواء على لسانيات الكلام، ويصر على عدم وضع حدود فاصلة بينهما.

شارل بالي:

اتخذ شارل بايي Ch.bally منحى مخالفا لأستاذه سوسير. فإذا كان هذا الأخير قد ركز أساسا على اللسان، فإن بايي قد أولى اهتماما كبيرا للكلام، و«موازاة مع لسانيات اللسان التي شغلت بال سوسير، كان يطمح إلى تشييد لسانيات الكلام، وتحديد الحدود الفاصلة بينهما، وبيان علائقهما المتبادلة»[٢٥]. وهكذا أعطى للكلام دورا أساسيا في تنفيذ المفترض اللساني، وإخراج بعض قواعده المجردة من حيز القوة إلى الفعل، والتأثير في بنياته المعجمية والصوتية والتركيبية. وأفضت به دراسة الوقائع الكلامية في شموليتها إلى إرساء دعائم علم جديد مشيد على النظريات الاجتماعية والنفسية (نظريات دوركهايم Durkheim وبرجسون Bergson)، وهو الأسلوبية. وتنحصر مهماته الأساسية في دراسة الكلام أو التلفظ التلقائي وتحقيقاته، والمقام، والردود النفسية للمتكلم. وعلى رغم تركيز بايي على موضوع مخالف إلى حد ما عن موضوع أستاذه، فهو بقي محافظا على ثنائية اللسان والكلام، وخاصة على ما تتضمنه من فروق دقيقة قائمة على الاعتبارات والمعايير نفسها.

لقد عرفت ثنائية اللسان / الكلام تحويرات وتعديلات دون أن يؤدي الأمر إلى استبدال محتواها الجوهري، ووظيفتها الإبستمولوجية.

أ- الاتجاه الكلوسيماتي:

هكذا تفرعت إلى ثلاثة أطراف عند لويس يلمسلف L.yjelmslev، قبل أن يختزلها إلى طرفين أساسيين (الخطاطة Schéma، والمعيار Norme) يحيلان إلى الثنائية نفسها. فـ يلمسلف يحدد اللسان بوصفه شكلا خالصا (الخطاطة)، وبوصفه شكلا ماديا (المعيار)، وبوصفه جماعا من العادات (الاستعمال Usage). إن الخطاطة توازي اللسان عند سوسير، وتعني جماعا من العناصر المحددة بمعزل عن تحقيقها المعجمي وتجليها المادي في شكل كلام منطوق. ثم المعيار الذي هو بمنزلة شكل مادي يعرف بتحققه الاجتماعي، لكن في منأى عن تفاصيل هذا التحقق، ثم أخيرا الاستعمال الذي يماثل الكلام عند سوسير، ويفيد مجموع العادات اللغوية التي تتبناها جماعات لغوية معينة(٢٦).

ب- النحو التوليدي:

نجد عند نعام تشومسكي N.Chomsky تمييزا بين الكفاية (اللسان) والإنجاز (الكلام). تعني الكفاية اللغوية مجموع القواعد والإمكانات التي يختزنها متكلم اللغة المثالي في دماغه، وبواسطتها يستطيع أن ينتج ويفهم عددا لا متناهيا من الجمل التي لم تخطر على باله من قبل، ويفهم ويركب جملا صحيحة نحويا، ويكشف عن الجمل المبهمة. أما الإنجاز، فهو يعني طريقة استعمال المتكلم لكفايته اللغوية بهدف التواصل في ظروف زمكانية محددة وآنية. وإذا حصر سوسير الإبداع في نطاق الكلام، فإن تشومسكي قد نقله إلى مستوى الكفاية، وجعله خاضعا لتحكم قواعدها، واعتبر هذه الكفاية أولى بالدراسة من الإنجاز. ومع ذلك لم يغفل ما للإنجاز من دور في التحوير الكيفي للنظام اللغوي، بسبب ما تراكم من الانحرافات عن المعرفة الضمنية للقواعد(٢٧).

ج- التداولية:

أعطى التحليل التداولي للخطاب اهتماما كبيرا بالوقائع الكلامية، و«بدأ يهتم بخارج - اللسانيات l'extra-linguistique بالمعنى التقليدي للكلمة، أي بكل ما يمت بصلة إلى لسانيات اللسان بالمعنى السوسيري الصارم؛ على نحو وقائع الكلام (الخطابات)، والوقائع المقامية (شروطها للإنتاج والتداول وآثارها)، وبالذات الوقائع الدلالية (المضمر الأيديولوجي)»(٢٨). ويحوي التحليل التداولي للخطاب كل الاختصاصات التي تهتم بالكفاية التواصلية المعالجة بواسطة القيود الخطابية (الشروط المحددة لنشاط الخطاب)، والمتعلقة أساسا بالمهارة الخطابية التي يتوفر عليها المتحاورون. ومن بين هذه الاختصاصات نذكر - على سبيل التمثيل - ما يلي: التداولية اللسانية (وهي مستمدة من أعمال الفلسفة التحليلية للأفعال اللغوية (آوستين Austin 1970، وسورل Searle 1972)، وللمعايير التحدثية (كرايس Grice 1970)، ثم

نظرية الحجاج (أوسوالد ديكرو Ducrot وأنكومبر Anscombre)، ثم المحادثة (تبلور الاهتمام بالتحليل التراتبي والوظيفي للمحادثة على يد إيدي رولي Eddy Roulet. ويعتمد هذا التحليل الاختباري على الأشرطة المسجلة، والندوات والحوارات المذاعة أو المتلفزة).

مما تقدم يتضح أن التفكير اللغوي تنازعه اتجاهان متباينان: أحدهما ركز على اللسان، والآخر اهتم بالكلام. وإذا كان الاتجاه الأول تعزز بفضل إسهامات سوسير التي أحدثت «ثورة كوبرنكية» في اللسانيات، فإن الاتجاه الثاني انتعش بفضل الإرهاصات الأولية للتداولية (كتابات شارل بايي وميخائيل باختين)، ووصل أوج تطوره مع التيار التداولي (نظرية الذاتية اللغوية، ونظرية الأفعال الكلامية، والنظرية الحجاجية... إلخ). وعليه، أصبح مفهوم الكلام يعني استخدام الصيغ اللسانية المقعدة والمجردة في شكل أفعال كلامية أو تحدثية ملائمة لمقامات معينة، وذلك للتعبير عن المشاعر والمواقف الشخصية، وحَمْل الآخرين على تغيير معتقداتهم. وقد تدرج الكلام من مستوى المعرفة والتواصل (التكلم) إلى مستوى التفاعل والحذق (كيفية التكلم). وهكذا أصبح الكلام لا يتوقف عند مستوى التعبير والنطق والتواصل، بل تعداه إلى حد المراهنة على الكفاية التواصلية التي تتطلب من المتكلم التوافر على مميزات إضافية لإقناع الآخرين بمعتقداته، وإثبات قضية أو نقضها.

٣- الكلام الروائي

يعد الكلام من بين المكونات الروائية التي تحققت فيها تراكمات مهمة، فلقد انكبت عليه الدراسات من جوانب متباينة ومنظورات مختلفة. وعديدة هي الأسماء النقدية أو الشعرية التي أفردت له دراسات مستفيضة. ومن بينها نذكر ما يلي. أتويل J.Attuel (أسلوب ستندال: الفعالية والروائية ١٩٨٠)، وميخائيل باختين (شعرية دوستويفسكي، سوي ١٩٧٠، نظرية الرواية وجمالياتها، كاليمار ١٩٨٨)، وبرنال O.Bernal (اللغة والتخييل في رواية بكيت، ١٩٦٩)، وفلاولت F.Flahault (الكلام الوسيط ١٩٧٨)، وباج N.Page (الكلام في الرواية الإنجليزية ١٩٧٣)، وبيير زيما P.Zima (ازدواجية القيمة الروائية ١٩٨٠، مدخل إلى النقد الاجتماعي ١٩٨٥)... إلخ. وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض الدراسات التي يمكن أن تسعفنا على ضبط مفهوم الكلام الروائي، واستجلاء ما يستتبعه من قضايا.

١- لقد سبق لنا أن بينا أن ميخائيل باختين يختزل تاريخ التفكير الفلسفي - اللساني في اتجاهين متباينين: أحدهما الاتجاه الذاتي الفرداني الذي أكبّ على موضوع الكلام، وثانيهما الاتجاه الموضوعاني المجرد الذي اهتم بموضوع اللسان.

وينتقد الاتجاهين معا مبينا ما يعتري كل واحد منهما من عيوب ونواقص. فمكمن نواة الوهم Proton Pseudos في الاتجاه الأول يتجلى أساسا في تفسير الإنجاز الفردي للكلام

بالرجوع إلى الشروط النفسية - الفيسيولوجية للمتكلم[٢٩]، أما في الاتجاه الثاني، فيُشخص في اعتبار الكلام ظاهرة فردية، واستنتاج أن قوانينه مختلفة عن القوانين التي تسود نظام اللسان وتسيره، واستبعاد التلفظ من دائرة اللسانيات[٣٠].

وشيد ميخائيل باختين تصوره للكلام (التلفظ) انطلاقا من المواءمة بين الشكلانية الروسية وعلم الاجتماع الماركسي، فخلص إلى أن الكلمة هي الظاهرة الأيديولوجية المثلى[٣١]، وأن التلفظ ذو طبيعة مجتمعية[٣٢]، وأن اللسان يحيا ويتطور تاريخيا في التواصل اللفظي الملموس، وليس في النظام اللساني المجرد لصيغ اللسان وأشكاله، ولا حتى في النفسية الفردية للمتكلمين[٣٣]. ومن هنا يتضح ان باختين يفرغ الوعي الفردي من الشوائب النفسانية، ويشحنه بالحمولة الاجتماعية - الأيديولوجية، ويخلص اللسان من التعريف السوسيوري (نسق من المقولات المجردة) ليتعامل معه بوصفه كلاما حيا، ولغة مشبعة بالعينات الأيديولوجية idéologèmes، ومفهوما للعالم. ومن خلال فحص الشّكة المفهومية التي يستخدمها باختين يتبين أنه حافظ على الثنائية المعتادة (اللسان / الكلام)، لكنه أعطى للكل طرف معنى محددا ينسجم ونسقه الفكري. فهو استعمال الكلام مرادفا للتلفظ أو الأسلوب أو اللغة المنطوقة (أي كل ما يتعلق بالكلام الحي الذي يتلفظ به المتكلم في ظرفية زمكانية محددة لمخاطبة مخاطبه قوة أو فعلا)، واعتبر اللسان نسقا اجتماعيا مشبعا بالأيديولوجيا، وقوة جاذبة نحو المركز لتجسيد الوحدة الثقافية والقومية.

ويصر باختين على ضرورة إحداث قطيعة مع الأسلوبية التقليدية، لأنها كانت تتعامل مع الكلام كما لوكان نسقا مغلقا، وحوارا داخليا مكتفيا بذاته ومجردا من الكلمات «الأجنبية» وأصوات أو أصداء الآخرين، وملفوظا منزاحا عن السياق، ومجرد إمكان بالقوة غير مرتهن بأي حضور آخر غير المتكلم ذاته. وهذا ما استدعى من ميخائيل باختين تشييد علم جديد لتناول التفاعل اللفظي في الملفوظ نفسه، ووسمه بالعبر - لسانية Teamslinguistique (وهو يماثل ما يسمى الآن بالتداولية). وينكب هذا العلم على التفاعلات اللفظية التي لا تترجم الروح الفردية، بل الدينامية الاجتماعية. وهكذا أصبح المتكلم، حتى ولو كان منعزلا، فردا اجتماعيا ملموسا ومحددا تاريخيا، يتحاور مع الآخر ناقلا كلامه أو مؤولا إياه. وخلال هذه العملية الحوارية، يتصرف المتكلم في الكلام «الأجنبي» مدخلا إياه في سياقات جديدة، ومضفيا عليه دلالات وعينات أيديولوجية مغايرة.

بما أن الرواية تكونت داخل التيار القوي النابذ والمعاكس للمركز، وأضحت وحدة عليا (الكل) تحتوي مستويات لسانية مختلفة، وتخضع لقواعد لغوية متعددة: فإن العلم المؤهل لتحليل بنياتها وطبقاتها اللغوية المتعددة، هو العبر - لسانية. فهذا العلم الذي يهتم باللسانيات العامة للغات الفردية أو اللسانيات التلفظية يعتبر الرواية مجاله المفضل، لأن فيها تتنوع اللغات

والأصوات الفردية تنوعا أدبيا منظما. وهكذا لا يعد كلام الكاتب أو السارد إلا رطانة من الرطانات المشخصة بطريقة فنية، والمشكلة للوحدة العليا. ويمكن له أن يحرف وعيه، ويبث كلامه في شكل جزر لغوية عبر أوعاء وكلام بعض الشخوص. كما يمكن لكثير من الملفوظات اللغوية أن تقدم أمثلة عن التعليل الموضوعي المزعوم، إذ تبدو كأنها أحد مظاهر أقوال الآخرين المستترة أو أقوال «الرأي العام»، في حين أنها تصدر عن الكاتب وتتموضع شكليا داخل منظوره الشخصي. إن هذه الأمثلة، تبين أن قولة بوفون مجرد خرافة، لأن الأسلوب هو رجلان فأكثر. ومعنى هذا الكلام أن داخل الأسلوب الواحد والوحيد يتعايش وعيان وملفوظان على الأقل.

تتميز الرواية ذات الأصوات المتعددة بقدرتها على تشخيص كلام الآخر بطريقة أدبية وفنية. ولا يمكن أن يقوم بهذا التشخيص اللغوي إلا من له معرفة بالتعدد اللغوي، ووعي بالفروق الاجتماعية - اللسانية. وهو عملية مقصودة ومفكر فيها بإمعان، تختلف عن المزج العفوي للملفوظات، وعن تجريب اللغات «الأجنبية» واستنساخها، وعن النزعة الجمالية واللعب اللفظي الشكلاني المحض. وفي حالة اضطلاع عالم الجمال بكتابة الرواية، فإن حذقه الجمالي لا يظهر داخل البنية الشكلية، وإنما يغدو النص المكتوب لعبة لفظية مجردة، ويشخص متكلما واحدا هو منتج الأيديولوجية الجمالية. وهذا ما يجد مجلاه في رواية «صورة دوريان جراي» لأوسكار وايلد، وفي الأعمال الأولى لـ توماس مان، وهنري دورينييه، وهويسمانس، وباريس، وأندريه جيد. وبهذه الطريقة، حتى عالم الجمال الذي يبني رواية، يصبح عبر هذا الجنس الأدبي، منتج أيديولوجيا يدافع ويختبر مواقفه الأيديولوجية، كما يغدو أيضا مدافعا ومجادلا[٢٤]. وهكذا يتبين «أن الموضوع الرئيسي الذي يخصص جنس الرواية، ويخلق أصالتها الأسلوبية، هو الإنسان الذي يتكلم، وكلامه»[٢٥]. وينبغي لهذا الكلام أن يكون مشخصا فنيا وأدبيا، حتى لا يختلط بالكلام المنقول والمستنسخ. وهناك طرائق عديدة ومتنوعة لتشخيص كلام الآخر أدبيا، نذكر منها على سبيل المثال: التهجين، والأسلبة، والمحاكاة الساخرة، والحوار الخالص، والتنويع، والتعليل الموضوعي المزعوم، وتنضيد اللغة إلى أجناس تعبيرية (المسرح، الشعر، والرسالة، والقصة القصيرة،...)، والتنضيد المهني للغات (لغة المحامي، ولغة الطبيب، ولغة المزارع، ولغة الأستاذ،... إلخ). فوراء هذا التنوع اللغوي، تتعايش مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية، وتتجسد صور المتكلمين الملموسين والمحددين اجتماعيا وتاريخيا، وتتضارب مختلف رؤيات العالم.

إن طبيعة الكلام هي التي تضع حدا بين الأسلوبية التقليدية والعبر - لسانية، وبين الوعي الجاليلي للغة (التعدد اللغوي) والوعي اللساني البطليموسي (وحدة اللغة)، وبين الرواية ذات الأصوات المتعددة والرواية المونولوجية، وبين رؤيات العالم المتعددة ورؤية العالم الجماعية. وفي هذا الصدد استطاعت الرواية المشخصة أدبيا أن تفتت المركزية اللفظية الأيديولوجية التي



سادت في العصر الوسيط. وتلاءم هذا الوعي الجاليلي للغة مع الكشوف الطبية والرياضية والجغرافية التي حطمت غائية الكون القديم وسياجه، كما حطمت الرقم الرياضي.

٢- يدافع رولاند بارث R.Barthes في كتاب «الدرجة الصفر للكتابة»[٣٦] عن التاريخ الخاص للبنيات والأشكال، مبينا مدى خصوصيته واستقلاليته، وتفاعله مع التاريخ العام. وركز اهتمامه خصوصا على الأعمال الروائية الحديثة التي تشكل قطيعة مع الأدب الكلاسيكي. وما يهمنا من الكتاب بالدرجة الأولى هو بيان المعنى الذي منحه بارث للكلام الروائي. وإن كان يبدو خارج الثلاثية الجوهرية (اللغة، والكتابة، والأسلوب) فمعالمه لا تتحدد إلا من خلالها، كما أنه يلعب أحيانا دورا حاسما في تفريد الذوات، والكشف عن أهوائها وتطلعاتها، واستكناه علاقتها بالتاريخ والمجتمع. وقبل استنتاج الوظيفة التي اسندت إليه، ينبغي في البداية بيان منزلة كل طرف من الأطراف الثلاثة:

اللغة هي مجموع التعليمات والعادات المشتركة بين كل كتّاب فترة معينة، وملكية مشاعة بين الناس، يتلقاها الكاتب بسلبية، لأنه لا يملك حرية كبيرة في تغييرها. وما يستطيع أن يفعله، ضد إرادة اللغة، هو أن ينزاح بها عن الاستعمالات المألوفة، ويطوعها في مقاسات جديدة للتواصل مع باقي أفراد المجتمع.

والأسلوب بوح يستمد نسغه من حياة الكاتب وحميميته وماضيه، ولغة مكتفية بذاتها تغور في ميثولوجيته الشخصية. إنه سجن الكاتب وروعته، والملاذ الذي يفجر فيه عقده وذكرياته وتطلعاته.

وبين اللغة والأسلوب يتوطد بنيان الكتابة. والكتابة هي أخلاق الشكل، والمجال الاجتماعي الذي يقرر فيه الكاتب أن يموضع «طبيعة لغته»، ويرصد من خلاله التقلبات الأيديولوجية وتضارب الأوعاء والمواقف. وتتميز الكتابة عن اللغة والأسلوب (بصفتهما قوتين عمياوين)، بكونها فعلا للتضامن التاريخي، ووظيفة تحدد علاقة المبدع بالتاريخ. وهذا ما يجعل كتّابا تفصل بينهم مسافة زمنية تربو على قرن من الزمن (على نحو ميريمي، وفينيلون)، يستعملون الكتابة نفسها، وإن كانت تميز بينهم فروق لغوية وأسلوبية. في حين، نجد كتابا آخرين يكاد يكونون متعاصرين (على نحو ميريمي، ولوتريامون، وملارميه، وسلين، وجيد، وكينو، وكلوديل، وكامو)، لا تجمعهم الكتابة نفسها.

ولما استجلى بارث تاريخ الكتابة الروائية خلال قرن من الزمن (١٨٥٠/١٩٥٠)، تبينت له مختلف الوظائف التي اضطلعت بها. فعلى إثر التحولات التي عرفها المجتمع الفرنسي سنة ١٨٥٠، انقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات متعادية، وبدأ الكون ينفلت من قبضة البورجوازية. وترتب على ذلك تكاثر أصناف الكتابات: الصنعية، والشفوية، والمحايدة، والمتحدث بها.

لما تحولت الكتابة من قيمة الاستعمال إلى قيمة العمل، أصبحت صنعة، وارتبطت بفئة من الكتاب الصناع (فلوبير، وكوتيي، وجيد، وفاليري) الذين ينعزلون في أمكنة بعيدة عن الأنظار، ليصرفوا اهتمامهم كلية إلى ترصيع اللغة وتزيينها، تماما مثلما ينجز الجواهري عمله بعد ساعات منتظمة من الجهد والعزلة.

ويعتبر فلوبير هو أول من أسس كتابة حرفية مثيرة للعواطف والحماس، ومشبعة بالأصوات المنتقاة والعذبة.

إن الكتابة التي ارتبطت بالثورة هي كتابة واقعية يضطلع بها كتاب لا أسلوب لهم (موباسان، وزولا، ودوديه). وليست هناك كتابة أكثر تصنعا من هذه التي تزعم تصوير الطبيعة عن قرب، وذلك بتوليف الإشارات الشكلية للأدب (الماضي البسيط، والأسلوب غير المباشر، والإيقاع المكتوب)، واستثمار أجزاء مستمدة من الواقع. وهكذا تحولت الجملة الطبيعية إلى جملة مصطنعة موجهة للتدليل على غائيتها الأدبية المحض، وعلى الجهد الذي تطلبته.

ويوظف ألبير كامو كتابة بيضاء متحررة من سلطان النظام اللغوي (كتابة مجردة من الصيغة)، تتموضع داخل الأحكام والصراعات دون أن تتلون بألوانها الأيديولوجية، بل أكثر من ذلك تتبرأ منها، وتتخذ صبغة النص الذي تتلاشى فيه الطوابع الاجتماعية والصراعات الأيديولوجية. وهذا لا يعني أن الكاتب يغض الطرف عن المجتمع، وإنما يهتم به دون أن يتورط في التزام إضافي للشكل داخل تاريخ لا يخصه أو الصدع بأيديولوجية منتصرة. إنها كتابة محايدة أو طريقة وجود الصمت.

منذ ١٨٣٠، بدأت تتسلل إلى اللغة الكلاسيكية رطانات جذابة تزين الأدب دون أن تهدد بنيته. كان بلزاك، وروسو، ومونيي، وهوجو، يلتذون بإعادة استعمال بعض الأشكال اللفظية الشاذة، وتشخيص كلام مختلف الشرائح الاجتماعية. وربما كان لا بد من انتظار بروست لكي يقدم الشخوص الروائية مقرونة بتلويناتها التلفظية ووضعيتها التاريخية (مهنتها، وطبقتها، ومكوناتها البيولوجية، وثروتها). وفي هذا المضمار، بدأ الأدب يهتم بالكلام الواقعي للناس، ويشخص التفاوت الاجتماعي، وينزع إلى تسوير الناس داخل لغة كاشفة عن وضعياتهم الاجتماعية ومواقعهم الطبقية.

مما تقدم يتضح أن الكتابة لغة مجمدة تنتعش من ذاتها، وهي ليست أداة للتواصل، بل فعل للانخراط في خضم الأحداث التاريخية. ولا تتجسد علاقتها بالمجتمع والتاريخ إلا من خلال الكلام، ولا يصبح الكاتب ملتزما فعلا إلا بتشخيص اللغة أدبيا، وعقد مصالحة بين كلمته وكلمة الناس. فبين لحظة البذخ (الكتابة الكلاسيكية) ولحظة المصالحة (معضلة التشخيص اللغوي)، مرت الكتابة بمحطات، كانت من أهمها المحطة التي شغلت الكتاب بالتأنق فيها. والمحطة التي تراجعت فيها إلى الدرجة الصفر حتى تقيم مسافة إزاء الموصوف، وتقدم الإشكالية البشرية من دون لون. ويتحدد الكلام داخل هذه الفسيفساء من التعريفات، بكونه

استهلاكا للكلمات، يتأرجح بين ما هو ذاتي (إفشاء الأسرار) وما هو جماعي (التضامن التاريخي). ولا يوجد الكلام إلا حيث تعمل اللغة على دعم وظيفة التواصل للكشف عن التطلعات الذاتية والجماعية. في حين تظل الكتابة متجذرة في ما وراء اللغة، وتشتغل كتواصل مضاد للترهيب، والتنديد بإفشاء السر.

٣- أخذ موموس Momus الإله اليوناني على فولكان Vulcain الشكل الذي أعطاه للإنسان، إذ لم يترك أي نافذة في التمثال الطيني تمكن من معاينة - عن كثب - إحساساته الداخلية. وهكذا يبدو المرء كينونة مغلقة يصعب معرفة ما يتلجلج في صدره من كلام صامت، ولا يمكن أن ندرك ما يجول في داخله إلا إذا حللنا واستقرأنا المحتويات الجلية التي تصدر عنه (ملفوظاته، قسمات وجهه، حركاته). وفي هذا السياق، تبدو الرواية أكثر الفنون قدرة على سبر أغوار الشخوص واستكشاف أرواحها وحيواتها الداخلية. وهو ما حاولت دوريت كوهن Dorrit Cohn أن تبرهن عليه في كتابها الموسوم بـ «الشفافية الداخلية». ولا يمكن أن نفهم هذا الكتاب إلا إذا ربطناه بدراسة جيرار جنيت Gérard Genette عن خطاب الحكاية. لقد ميز فيها بين محكي الأحداث ومحكي الكلام: في محكي الأحداث يضطلع السارد بحكاية ما قامت به الشخصية أو ما وقع لها. أما في محكي الكلام، فهو يتخذ كلام الشخصية موضوعا لسرده. وفي هذه الحال، يجد نفسه أمام ثلاثة إمكانات من الصيغ الخطابية(٣٧):

أ- الخطاب المسرود: يتحمل السارد نقل قرارات الشخصية باسمه، ويفصلها تفصيلا تحت الشكل الموسوم تقليديا بمصطلح التحليل، والذي يمكن أن يعتبر حكاية أفكار أو خطابا داخليا مسرودا.

ب- الخطاب المحول: لا يكتفي السارد بنقل كلام الشخوص إلى جمل تابعة، بل يكثفها، ويدمجها في خطابه الخاص، وبالتالي يؤولها بأسلوبه الشخصي.

ج- الخطاب المنقول: إن أكثر الأشكال محاكاة هو طبعا الشكل الذي رفضه أفلاطون، وفيه يتظاهر السارد بإعطاء الكلمة حرفيا لشخصية ما.

إذا وضعنا بعين الاعتبار تحليل دوريت كوهن للحياة الداخلية للشخوص، يمكن أن نخرج بتصور مفاده أن أي محكي يتكون من ثلاث طبقات(٣٨):

أ- محكي الأحداث.

ب- محكي الكلام.

ج- محكي الأفكار.

إن عمل دوريت كوهن يندرج في إطار محكي الأفكار، لأنها اهتمت بالحياة الداخلية والباطنية للشخوص. وما يثير الانتباه في مفهوم محكي الأفكار هو إقصاء الكلام بصفته مكونا أساسيا لتجسيد وتشخيص ما يتخلل النفس من مشاعر ومواقف. فلا يمكن لهذه

المواقف والمشاعر أن تصبح لها دلالة إلا إذا انتظمت في جمل صامتة. وفي هذا الصدد، يرجع الفضل إلى الرواية في بوحها بأسرار الشخوص، وإبراز ما تنسجه من أحلام وبرامج قبل أن تظهر إلى الوجود. وبفحص التقنيات المعتمدة للتدليل على الشفافية الداخلية للرواية (المحكي السيكولوجي، المونولوج المنقول، المونولوج المسرود، المحكي الذاتي، الاستبطان، المونولوج المنقول ذاتيا، المذكرات، المونولوج المستقل،...) يتضح أن الكلام يعد عنصرا أسياسيا في تمييز كل تقنية على حدة، وبيان طبيعة الحالة النفسية التي تنتاب شخصية ما. وحسبنا هنا أن نذكر فقط التقنيات الثلاث التي تختزل تصور دوريت كوهن في تشخيص الحياة الباطنية والنفسية في الرواية:

أ - **المحكي النفسي** Psycho-récit: يضطلع السارد بهذا المحكي لاستكشاف روح الشخصية، وإطلاع القراء على حياتها الداخلية، والبوح بأسرارها وتطلعاتها الدفينة. ويبني محكيه انطلاقا مما تتلفظ به الشخصية داخليا. وإن كان يهيمن عليها، فهو يتماهى معها لغويا إلى حد يصعب الفصل بينهما. ويضاهيها في تنظيم أفكارها وتوضيحها، بل أكثر من ذلك، يعبر عن حياتها الذهنية بطريقة جديدة حتى ينقذها من الصمت، والغموض، والاضطراب. وتتوسع رقعة هذا النوع من الصيغ الخطابية في الرؤيا والحلم والتوتر.

ب - **المونولوج المنقول**: إنه الخطاب المباشر الذهني للشخصية، وغالبا ما يعبر عنه بالمناجاة النفسية، والمونولوج المستقل، والمونولوج الفوري. لقد أصبحت هذه التقنية السردية معترفا بها في منتصف القرن التاسع عشر. وخلالها يتنازل السارد عن سلطته بغرض إتاحة المجال لشخصية ما لتعبر عن حياتها الداخلية. وكثيرا ما يتم التأشير إلى ذلك بصيغ لغوية مسكوكة (على نحو يفكر ويظن ويهمس...). ويلجأ السارد أحيانا في محكي ضمير الغائب إلى الاستشهاد بكلام الشخصية، ويوهمنا بأنه لا ينقله كما هو، بل يتصرف فيه. «وإن كانت تقنية المونولوج المنقول تفترض تشخيص لغة (واقعية)، فمن الصعب تحديد نموذج هذه اللغة على مستوى الواقع. وهذا لا يعني بأنه خيالي محض. فالكتاب والقراء على حد سواء يعرفون بأنه موجود ولو أنهم لم يصادفوه إلا في سرائرهم»[٣٩].

ج - **المونولوج المسرود**: يذوب الخطاب الداخلي للشخصية في خطاب السارد إلى حد يتعذر معه الفصل بينهما. يتعلق الأمر هنا بفهم الحياة الداخلية للشخصية، واحترام لغتها، والحفاظ على ضمير الغائب وزمن الحكي. ويمكن أن تستخدم هذه الصيغة الخطابية لتوظيف السخرية، وبيان كيفية انعكاس الأحداث في ذهن الشخوص، وتشخيص الحياة الداخلية كتابة.

يتبين من خلال عرض هذه الصيغ الخطابية أن الرواية تلعب دورا أساسيا في الكشف عن الحياة الداخلية للشخوص، وبيان ما يتلجلج في صدورها من كلام؛ فالإنسان قبل أن يتصرف أو يصدر فعلا كلاميا، يتكلم في صمت. لا أحد يمكنه أن ينفذ إلى طويته للإصغاء إلى

أحاديثه الباطنية. وحده الروائي له هذه القدرة على ذلك. وهذا ما حاولت دوريت كوهن أن تبرهن عليه بانكبابها على تحليل متن روائي متنوع.

٤- تعامل بيير فان دين هوفل P.V. Den Heuvel في كتابه الكلام، الكلمة، الصمت مع الظواهر اللغوية من منظور شعرية التلفظ التي «تدرك الكتابة بوصفها ممارسة لغوية، والقراءة بوصفها مشاركة فعالة، والتواصل الأدبي باعتباره تجربة اختبارية معيشة. وتعير هذه الشعرية أهمية خاصة للقدرة المستترة للكلمات، وللبنى التي تحيل داخل اللغة إلى المستوى الخفي للتلفظ، وإلى العناصر التي تكون مشحونة بطاقة قادرة على تحويل كلمات وفراغات المكتوب إلى كلم. فهذه القوة التي تحتاج إلى أن تحرر بواسطة الاستثمار الشخصي والفعال للمتكلم / القارئ، تحول التواصل الداخلي للملفوظ الحكائي إلى تواصل حواري يشكل الملفوظ دليلا له»[٤٠]. إن الاستراتيجية التي رسمها الكاتب في هذا الكتاب حتمت عليه تجاوز التصور البنيوي المحايث الذي يهتم خصوصا بالملفوظ، ونقض شعرية التشخيص التي لا تكترث بالآثار والمحافل التلفظية. وهكذا انفتح على المقاربات (التداولية، التفكيكية، التحليل النفسي) التي تسعف على فهم الشروط المادية لإنتاج النصوص وتشكلها، وبيان العلاقة الجامعة بين اليومي المبتذل والجمالي الباذخ، وتحديد وظيفة الذات في الخطاب الذاتوي subjectiviste والموضوعاني objectiviste. وركز في الأرضية النظرية على ثلاثة مفاهيم جوهرية: الكلام، والكلمة، والصمت. ولا يمكن أن نفهم مفهوم الكلام إلا في علاقته بهذين المفهومين، وبمفهومين آخرين، هما الخطاب والنص.

في بداية الاهتمام بالخطاب، كان مفهومه مترادفا مع مفهوم الكلام في النسق السوسيري. لكن سرعان ما أصبح يعني وحدة عبر - جملية غير مرتهنة بالذات. أما النص، فهو خطاب مكون من أصوات متعددة، وملفوظات ذات أصول متنوعة، وطبقات تلفظية ينبغي حصرها وتحديدها لبيان طبيعة تفاعلها اللفظي. والكلمة هي الكلام الذي لا يتلقى الجواب مباشرة. ويقتضي تحويل الكلمة إلى كلام تدخل عدة قدرات حسية على مستوى الخيال، وهو «ما يقرب الوضعية المتلقية من الوضعية الحقيقية للكلام، ويفضي إلى التزام حواري»[٤١]. ويشكل الصمت استراتيجية مغرية تؤثر في القارئ، وتدعوه إلى ملء ما يتخلل الكتابة من فراغات وبياضات وثغرات. وكلما شارك القارئ في ملئها شعر بالغبطة والمتعة. «إن الصمت يتكلم، ويمكن أن تلعب فصاحته دورا حاسما في التواصل، كما يمكن أن يكون مخيفا على نحو الصراخ»[٤٢].

أعطى هوفيل للكلام تعريفا قريبا من تعريف سوسير، وذلك على نحو يجمع بين الملموس والمجرد، ويحيل في الوقت نفسه إلى التجليات المسموعة والمشاهدة. لكنه ركز عليه من زاوية أنه تلفظ لغوي ونشاط مشترك يحوي الإنتاج والتأويل في آن. ويتفق الكلام المنطوق والكلام المكتوب في كونهما فعلا فرديا موسوما بالذاتية التي تتشخص على مستوى التجلي. لكنهما

يفترقان في كون الكلام المنطوق يكون أكثر توافرا على الخصائص الصوتية والحركات المصاحبة لها من الكلام المكتوب. ومع ذلك، سيحاول كثير من الكتاب أن يستثمروا ما أمكن السمات الشفهية في كتابتهم. ومن بين الإجراءات التي يتحقق بها ذلك، نذكر على سبيل المثال المحكي التعبيري المباشر skas، وخطاب التعليق، والكلام اليومي، والرواسم، والمسكوكات اللغوية، والصرخة، والضحك، والخطاب النصي الذاتي، والخطاب المنقول الانعكاسي، والاستشهاد... إلخ. وهي تسهم جميعا في إثراء النص الروائي بالسجلات والطبقات اللغوية المختلفة والمتباينة، ووسمه بمجموعة من السمات والمميزات الصوتية الشفهية، وجعله يدخل في علاقة حوارية وتناصية مع مختلف أنواع اللغات وأنماط الخطابات.

إن التعامل مع النص الروائي بوصفه بنية مشخصة للكلام المنقول، يقتضي التمييز بين الكتابة الذاتوية والكتابة الموضوعانية. فأولاهما تهم ما يتعلق بمعضلة صورة اللغة، وبالرغبة في التحاور وضمان استمراريته (اللغو والرغي). أما ثانيتهما، فتند عن استخدام السمات الشفهية، وتنزع إلى التأدب والتفصح، وهي عبارة عن كتابة بيضاء مجردة من الذات على نحو الصباغة في لوحة تشكيلية.

تغيا الكاتب في التطبيق بيان إجرائية العدة المفاهيمية النظرية، وترصد كيفية تشغيل مختلف أصناف الكلام المنقول. وهكذا اختار متنا مشكلا في مجمله من النص الروائي. فبرهن على مدى توافر الغيرة لـ آلان روب جرييه على الذات المتلفظة عكس التصور السائد الذي يعدها نصا مبنيا للمجهول، وركز على الفصل الثالث من الغريب لـ ألبير كامو للتدليل على فصاحة الصمت من خلال إبراز المصاعب التي تعترض الذات أثناء التواصل، وبيّن ملامح الذات المتغيرة في الرواية التشكيلية pico-roman لانبنائها على نظامين دلائليين مختلفين (التخييل الروائي لـ آلان روب جرييه، واللوحات التشكيلية لـ رونيه ماجريت)، وتضعيفها لمتعة القراءة والمشاهدة. ثم خصص فصلا خاصا لبيان ما تحفل به هذه الرواية التشكيلية (الأسيرة الحسناء) من نشاط إنتاجي يشتغل بوصفه وسيلة أساسية لتنظيم أدلة غير متجانسة ممتوحة من المجتمع. وعمد في فصل من الفصول إلى تحليل شكل خطابي قديم، وهو اللغط potin، الذي أصبح يستثمر في بعض العينات من الصحف؛ وذلك للبرهنة على وجود خطابات أخرى تستثمر أصناف الكلام المنقول، والتوقف على ما يميزها عن الخطاب الروائي (إبرازها للمقصدية، واعتمادها على التطويع اللغوي).

نستنتج أن هوفل يعد الكلام (سواء أكان منطوقا أم مكتوبا) فعلا لغويا أو فعلا تلفظيا تنتج الذات من خلاله ملفوظا. وهو يعني دائما فعلا مشتركا يتقاسمه المتلفظ (المتحدث) والمتلفظ المشارك co-énonciateur (المتحدث معه). وإن كان دور هذا الأخير مجرد تلقي بسلبية ما يتلفظ به المتلفظ، فهو يحدد التلفظ بوصفه نشاطا مشتركا، ويسهم في توفير بعض العناصر

المقامية أو السياقية التي تؤثر في مجريات التواصل. ويقترن الكلام بالذات وبأدائها أو نشاطها اللغوي، ويتنضد في الكتابة الذاتوية على شكل طبقات وسجلات لغوية تحوي بين ثناياها أصواتا وعينات دلالية أيديولوجية متباينة، وتستثمر ما أمكن ما تتوافر عليه بنية التخاطب من سمات شفهية وطاقات صوتية.

٥- سعت جليان لان مرسيي G.L. Mercier في كتابها الموسوم بـ «الكلام الروائي» إلى تشييد شعرية الكلام الروائي المباشر لبيان خصوصيته الوظيفية والمرجعية والبنيوية. وبما أن الموضوع يستقطب اهتمامات عديدة، فهي حاولت أن تستثمرها لإعادة الاعتبار لمفهوم الحوار، والنظر إليه من زوايا متعددة: كيفية تشخيص النبرات الصوتية، علاقة الكلام بالمتلفظ، الإمكانات الخطابية، علاقات البرامج الخطابية بالبنى العاملية والإرغامات الموضوعاتية. وتشرح الكاتبة في ما يلي بالمقصدية العامة التي تحكمت في الاهتمام بالأسلوب المباشر: «لقد حاولت تشييد فضاء مفهومي إربا إربا من أجل إدماجه داخل النظرية السيميائية الراهنة، وفهم مكون روائي كان في غالب الأحيان ضحية مقاربات تخمينية أو اختزالية على حساب مقاربات سردية، ثم مقاربات وصفية في الآونة الأخيرة. ينبغي بالمقابل، أن نخلق تجانسا بين النتائج المحصل عليها، ونقترح تنظيرا لها لنضمن للأنساق الخطابية الروائية إطارا سيميائيا متماسكا ومندمجا في آن»[٤٢]. وإلى جانب ارتكازها على النظرية السيميائية، اعتمدت كذلك على التداولية، والتلفظية، ونظرية الحجاج والتخاطب، والسرديات، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم اللغة الاجتماعي. فكل قضية تهم عن كثب الحوار، تستدعي ترسانة مفهومية لمقاربتها، والانهيال عليها بالنقد والتعليق.

في البداية طرحت معضلة تشخيص الشفهي بواسطة المكتوب، وأبرزت التفاوت المحتم بين الشفهي والكتابي. وإن كانت الرواية تجد صعوبة في تجسيد الشفهية العضوية التي يتسم بها التشخيص المسرحي، فهي تحاول التعويض عنها بتوظيف المواضعات الطبوغرافية (المزدوجات)، والنحوية (أزمنة الأفعال، والمعينات)، والكتابية (الأقواس). وفيما يخص الجانب المعجمي والتركيبي، يتوافر الكاتب على إمكانات عديدة توفر له مزيدا من الحرية لإدماج هذه المعجمية أو تلك، والتفكير في المسارات الخطابية التي تلائم فاعلا محتمل الوجود.

ثم طرقت موضوع الحوار بوصفه جماعا من الأفعال اللغوية الإنجازية المصطلح عليها، التي تتعلق بوضعيات تلفظية محددة. إن الفعل الإنجازي الذي يتلفظ به المتحدث قادر على تشخيص حقيقة ذات طبيعة مؤسسية (إعلان رئيس مجلس النواب عن افتتاح الجلسة، وإصدار أوامر وطلبات) وبين - ذاتية (تنفيذ الفعل من طرف المأمور يقتضي توافر شروط أساسية، ومن ضمنها الصدق). ويتوخى منه أساسا التأثير في محاوره، وإجباره على التخلي عن معتقداته، والاعتراف بالمقصدية التي صدر عنها الأثر. ويمكن لأفعال الإنجاز أن تكون

مباشرة أو مضمرة أو مصحوبة بالجهات أو معقدة. وتخص الحالة الأخيرة أفعال الحجاج والتخاطب والحكاية الشفهية التي «تخلق فضاءات خطابية تكون علائقها غالبا منتقاة وموجهة»[٤٤]. إن نظرية الأفعال الإنجازية وخطاطة أوركيوني لا تكتسبان قيمتهما إلا من الفعل التلفظي الحقيقي الذي يجري على أرض الواقع. ويستمد الحوار الروائي معاييره التحدثية من الحوار الواقعي. ولما يتشخص روائيا، فهو يتشيد بوصفه شبيها simulacre له، وبالتالي «يدخل في شبكة روائية محض حيث تنضد التفريعات الجهية المميزة فقط للجنس الحكائي»[٤٥]. وهنا تكمن نمذجة لنفيلت Linvelt للتمييز بين المحافل الموجودة خارج النص وداخله، وبيان ما تتيحه بنية الحوار من إمكانات لتعدد الأصوات والمحافل التلفظية. إن اعتماد جليان على السرديات والتداولية، جعلها تعمق النظر في خصوصية الحوار الروائي لإبراز سماته التلفظية، والكشف عما يجمعه بالحوار الحقيقي وعما يميزهما. ومن مميزات الحوار الروائي أنه يخلق علائق لغوية يتعذر على اللغة المتداولة أن تحينها.

واستخدمت العدة المفاهيمية السيميائية لبيان الإبدالات الخطابية المتواضع عليها التي يتحدد من خلالها المتكلمون (كلام الخادم مغاير لكلام السيد) باستثناء الحالات التي يحصل فيها انقلاب الأدوار (على نحو انقياد السيد لأوامر الخادم). وفي السياق نفسه، حددت الإرغامات التداولية الموضوعاتية، وبينت ما يميز الكلام النمطي العاملي (كلام المرسل، وكلام المعارض، وكلام المساعد،...) من الكلام النمطي الفاعلي (كلام الأستاذ مخالف لكلام التلميذ). وهكذا يستتبع فاعل المعتدي معجميات العطف والعداوة والطموح، ونبرات خاصة معبرة عن حالة التوتر والانفعال، ويوظف في مستوى التحدث فعلي الأمر والتهديد، ويلجأ في مستوى التخاطب إلى الخرق المتعمد لمبدأ التعاون أو إلى توظيف انحرافات لغوية لتحقيق أغراض استراتيجية (الصد، اللجاجة، التحاج، إيقاف كلام محاوره)، ويعمل في مستوى الاقتضاء إلى استعمال شكة من التوجيهات الخطابية. كما أنه عبارة عن توليفة من الجهات، (يرغب، ثم يقدر، ثم ينفذ) التي تستتبع برنامجا تلفظيا (التخطيط، ثم القدرة، ثم الإنجاز). وليس الكلام فقط وسيلة للتواصل التي تتطلب من المتحاورين التوافر على مؤهلات لغوية، بل كذلك موضوعا قيميا قابلا للتمفصل حسب آليتي الوصل والفصل، وعاملا مساعدا أو معارضا حسب الاقتضاء. وفي السياق نفسه «لا يعد الكلام مجرد حالة بسيطة أو وظيفة بسيطة ترهص بالفعل التحدثي أو الجهة الحوارية للذات، بل يتشخص كوسيلة «موضوعانية» تستخدم لغايات محددة يمكن أن نرفضها أو نحبذها أو نخشاها»[٤٦].

كان جنيت قد أقر بأن المعادلة بين زمن القصة وزمن السرد تتحقق في الحوار، في حين أن جليان ترى أن التكثيف أو التمطيط الحواري يفضي إلى المفارقة بينهما، وذلك بتوظيف ردود حكائية أو وصفية. وتنظر إليه كذلك بوصفه تجسيدا لجريان زمني يترتب عليه وجود ترابط

وظيفي، وتماسك دلالي وحجاجي، وتشاكل موضوعاتي وفاعلي. وإن كان الحوار يتيح إمكان تكرير نتف من التعابير اللغوية، فهي لا تعيد إنتاج المحتويات التداولية نفسها بسبب تغير المحافل التلفظية.

مما تقدم يتبين أن جليان تهتم بمكون الكلام الروائي المباشر (الحوار) لتحديد علاقته بالحوار الحقيقي، وبالعالم الحكائي، وبالمسارات الخطابية الممكنة، واستنتاج المحافل التلفظية منه، ورؤيات العالم، وكيفية تشخيص السمات الشفهية. وهي لا تعتبر الكلام وسيلة للتواصل فقط، بل كذلك موضوعا قيميا مستهدفا في حد ذاته، قد يسعف على تحقيق المبتغى (عامل مساعد)، وقد يعيق ذلك (عامل معارض). وبمجرد أن يشغل الحوار حيزا داخل النص، ينزاح عن الواقعية ليؤدي وظيفة جمالية، تقدم معرفة عن طبيعة الكَلِم المستخدم في فترة زمنية ووضعية اجتماعية محددة، وطريقة التعبير عن رؤيات العالم. وتدعم قولها بكون كثير من الحوارات الروائية يحتفظ بطابعه الكتبي livresque، ولا تحيل إلى الواقعية. وفي هذا الصدد، تقترح الواقعية اللفظية للدلالة على كيفية تشخيص الحوار المكتوب للسمات الشفهية، وبيان طبيعة العلاقة التي تربط بينه وبين الفعل التلفظي الحقيقي.

٤ - سلطة الكلام:

لا يتسع المجال لاستقصاء جميع ما قيل في الكلام، فهو مجال متشعب وواسع جدا. وحسبنا أن نشير إلى أنه خلال العقود الأخيرة تزايد الاهتمام بالكلام من حيث منزلته في اكتساب الشرعية، والتأثير في الآخرين لتغيير معتقداتهم، ودحض أقاويل الخصوم. وهذا ما جعل منه سلطة تستدعي دراستها وتعلمها والتمرن عليها، خاصة في مجتمع أصبح، أكثر من أي وقت مضى، يعتمد على الحرب الكلامية، ويخضع لوسائل الإعلام، ويراهن على كسب ثقة النخب والجماهير على حد سواء.

وفي هذا الصدد نشير إلى كتاب «كيفية القول...» لكودفري هوارد Godfrey Howard[٤٧]. وهو كتاب يستثمر «بريق البساطة» لتقديم مجموعة من الإرشادات للمتكلم حتى يصبح مؤهلا لجلب انتباه المتلقين، والتأثير فيهم لتبني وجهات نظره وضمان تواصل جيد وفعال معهم، والوصول إلى مبتغاه بأيسر الطرق. وترتكز تقنيات التخاطب على معطيات نفسية وفسيولوجية ولغوية ومقامية. فجميعها تتضافر لجعل التواصل فعالا ومفيدا. ويستجيب الكتاب لمتطلبات المجتمع العصري (التجارة، التدريس، العمل، الإدارة، الإعلام، السياسة) من حيث أنه يقدم للمتكلم تقنيات التخاطب لتلميع صورته في عيون الآخرين، وإقناعهم بجدوى بضاعته أو برنامجه الانتخابي، واكتساب مزيد من الاعتراف والشرعية، وتوفير شروط أحسن للنجاح والرفع من الجودة والمردودية.

ثم نلمح إلى كتاب بيير بورديو الموسوم بـ «المقصود من الكلام». ففيه اهتم بورديو بالكلام بوصفه قيمة لا تكتسب أهميتها وملاءمتها إلا داخل السوق اللغوي. فالأدلة لا تستخدم فقط للفهم والتفكيك، بل كذلك للغنى؛ لأنها قابلة للتثمين والتقويم و«اعتبر التبادل اللغوي تبادلا اقتصاديا مبنيا على علاقة القوة الرمزية بين منتج له رصيد لغوي، وبين مستهلك (سوق) له القدرة على إعطاء ربح مادي أو رمزي»[٤٨]. وتند أطروحة بورديو عن تناول اللغة بوصفها موضوعا مستقلا (سوسير)، وتعيد الاعتبار لعلم الاستعمالات الاجتماعية للغة على حساب علم اللسان، وتنظر أساسا إلى الشروط الاجتماعية والمقامية المتحكمة في فعل الكلام. فليست سلطة الكلام إلا سلطة مفوضة للتحدث بلسان جهة معينة. وفي هذا الصدد ينتقد أوستين وهابرماس لكونهما يعتقدان أنه توجد داخل الكلام في حد ذاته علة تفسر فعالية الكلام. في حين يرى أن هذه الفعالية لا يمكن أن تفهم إلا بربطها بشروط خارج اللغة. فكلام رئيس مجلس النواب يستمد شرعيته من المقام الذي يؤطره، ومن المؤسسة التي فوضت له حق الكلام باسمها. وهكذا يتضح أن الكلام يستمد سلطته من خارج اللغة، ومن كونه صادرا عن شخص يملك سلطة. وتنحصر مهمته أساسا في تشخيص هذه السلطة وإبرازها والإحالة إليها. وبالجملة «نعاين أن المجهودات المبذولة لإيجاد مبدأ الملاءمة الرمزية لمختلف أشكال الحجاج، والبلاغة، والأسلوبية في المنطق اللغوي المحض محكوم عليها بالفشل إذا لم تقم علاقة بين الخصائص الخطابية، وخصائص من يتلفظ بها، والمؤسسة التي تحتم عليه التلفظ بها»[٤٩].

وأخيرا، نحيل إلى كتاب المتلاعبون بالعقول[٥٠]، الذي يراهن فيه صاحبه هربرت أ. شيلر Herbert Schiller على تشخيص سيرورة التطويع الإعلامي بوصفه إحدى الأدوات الرئيسية للسيطرة على الجماهير. وإن كان عنصر الكلام لا يشغل إلا حيزا ضئيلا داخل الكتاب، فهو يلعب دورا أساسيا في إخضاع البشر، وقهرهم، وتحويلهم إلى مجرد منفذين للأوامر، وترسيخ الثقافة التجارية في أذهانهم (أو بتعبير أدق، ثقافة سلطة الشركات العملاقة) والأساطير الجديدة (انتفاء الصراع الاجتماعي، الطبيعة الإنسانية الثابتة، الحياد، الفردانية). يراعي صناع القرار (النخب الحاكمة، وأرباب الشركات الكبرى) أثناء إصدار التوجيهات السرية للتحكم في الجماهير والعالم بأسره اختيار الصيغ الكلامية الملائمة والمستساغة، وتوفير الوسائل الإعلامية المتطورة، وصناعة المعرفة واستطلاعات الرأي. وما يهم بالدرجة الأولى هو حفز الناس على ابتياع السلع المعروضة، والإقبال بالهمة على قيم الاقتصاد السلعي.

اكتفينا بهذه العينات من الكتب لبيان أن الكلام ليس فقط وسيلة للتعبير عن المشاعر والمواقف الشخصية، بل سلطة مفكر في حيثياتها وفعاليتها لتطويع الآخرين، وتغيير معتقداتهم. ولا يتأتى ذلك إلا إذا صدر عن شخص له سلطة الكلام، ويعرف كيف يستخدمها لاكتساب مزيد من الاعتراف والشرعية. ويفقد الكلام سحره وفعاليته عندما يستعمله المتكلم خارج المؤسسة التي تؤطره أو الجماعة التي وكلت إليه أمر التحدث باسمها.

عالم الفكر
العدد 4 المجلد 32 أبريل - يونيو 2004

خاتمة

حاولنا فيما سبق أن نستكنه مفهوم الكلام في اختصاصات ومجالات متباينة. وقد تبين لنا منذ البداية أن تحديد المفهوم يقتضي النظر إليه من زاوية تطورية. وهكذا توقفنا عند اللحظات الحاسمة من تاريخه، ليس بهدف فقط استنتاج مختلف المعاني التي علقت به، بل لبيان ما ائتلف منها في تحديد طبيعته ووظيفته. وإن اختلفت التعاريف، فهي تتفق في كون الكلام فعلا فرديا صادرا عن إرادة المتكلم ومؤهلاته الذهنية واللغوية، وطريقة خاصة يعرف بها الفرد غيره ما في ضميره من الإرادات والاعتقادات، وجماعا من المواضعات والأفعال الكلامية التي تستدعيها مقامات معينة. وهذا لا يعني أننا نزعم أن فلانا له فضل السبق على آخر، بل نريد التوكيد أن هناك تقاربا في تناول الحدث الكلامي الذي يضطلع به الفرد «بحسب أحواله وقصده وإرادته واعتقاده، وغير ذلك من الأمور الراجعة عليه حقيقة وتقديرا»[٥١]. ومع ذلك يبقى الفرق الجوهري بين مختلف التعاريف في كون ما قدم وتلد منها بقي متشذرا ومتفرقا، واستخدم لأغراض خارجة عن اللغة (فلسفية، ودينية، وكلامية، وبلاغية،...). في حين أن ما حدث وطرف اندغم في نسق متكامل، وانبنى على أساس معرفي متين، واستعمل لأغراض لغوية صرف. وهذا ما حدث بالذات بعد صدور كتاب فرديناند دي سوسير «محاضرات في اللسانيات العامة». ومع ذلك ينبغي الاستئناس بكثير من التعاريف العربية القديمة التي تسعف على استكناه ما يدخل في جنس الكلام وصناعته ومرادفاته. فيما يخص الجانب الأول يقسم العرب عموما الكلام قسمين: الكلام المنظوم المقفى (الشعر) والكلام غير الموزون (النثر)، وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام[٥٢]. وفيما يتعلق بالجانب الثاني، فالكلام يعد ملكة شبيهة بالصناعة، لا يستوفي حقه من الجودة والكمال إلا إذا اجتمعت فيه فضائل الانتظام، والدربة، والفصاحة، والبلاغة، والإفادة، والصدق.

وإن اتفقت مختلف المجالات على إسناد الوظيفة نفسها إلى الكلام، فهي تتباين في طبيعة الخلفيات المنطلق منها:

١- يركز المجال الديني على الخلفية الأخلاقية للكلام. ولذا يحث على الكلام الطيب الذي يوجه الخلق إلى الصراط المستقيم، وينهى عن الفحش والمنكر.

٢- يعتبر الفكر اللغوي القديم واللسانيات الحديثة الكلام فعلا فرديا تبرز فيه كفاية المتكلم وهويته وانتماءاته المحلية والقطرية.

٣- كان لميخائيل باختين الفضل في تمييز الرواية الأحادية الصوت (التي تعتمد على لغة واحدة) من الرواية المتعددة الأصوات (التي تعتمد على أصوات متعددة). ففي هذه

الرواية الأخيرة، يصبح الكلام وسيلة لتفريد الشخوص، وإبراز هويتهم وانتماءاتهم الطبقية والعرقية، والكشف عن عيناتهم الأيديولوجية (موقفهم من الوجود)، واستجلاء مظاهر التعدد اللغوي وطرائق التشخيص الأدبي للغة (الأسلبة، المحاكاة الساخرة، التهجين، الأجناس المتخللة،...)».

٤- إثر تطور وسائل الإعلام تزايد الاهتمام بالكلام بوصفه وسيلة لتطويع الجمهور وتغيير معتقداته، واستجلاء الفوارق والأصول الاجتماعية. وفي السياق نفسه أصبحت التقنيات التواصلية للكلام تدرس في المجتمعات المتقدمة لتمثلها وتشغلها في مقامات محددة (الانتخابات، العرض التجاري،الإشهار،...) لكسب أكبر عدد من الجمهور.

هوامش البحث

1 انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٤م، ١٤١٤هـ، مادة كلم، ص٧٨٧ و٧٨٨، مادة قول، ص٧٣٢ و٧٣٣، مادة لغا، ص٨٢٥.

2 أبو حامد الغزالي، كتاب الأربعين في أصول الدين، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨، ص٨٣.

3 أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، حققه محمد علي النجار، ج١، دار الهدى للطباعة والنشر، ط٢، بيروت، لبنان، [د.ت]، ص٤٨.

4 ابن منظور، لسان العرب المحيط، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط، دار الجيل، دار لسان العرب، بيروت، ج٥، ١٩٨٨، مادة كلم ص٢٩٠ و٢٩١.

5 المرجع نفسه، مادة لغا، ص٣٧٨.

6 يقول الله تعالى (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف)، النساء ١١٤.

7 قال الرسول (صلى الله عليه وسلم):

- «إن الله لم يبعث نبيا إلا مبلغا، وإن تشقيق الكلام أو الخطب لمن الشيطان».

- «إن أحبكم إلي وأقربكم مني محاسنكم أخلاقا وإن أبغضهم إلي وأبعدهم مني مساوئكم أخلاقا الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون».

- «إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون والمتفيهقون والمتشدقون في الكلام».

- «يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها».

8 ابن منظور، لسان العرب، م. سا، مادة كلم، ٢٩٠ و٢٩١.

9 ابن جني، «باب القول على الفصل بين الكلام والقول»، الخصائص، ج١، م.سا، ص. ص٥-٣٢.

10 أبو محمد عبدالله بن محمد سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢.

11 المرجع نفسه، ص٣٢.

12 المرجع نفسه، ص٩٣ و٩٤.

13 المرجع نفسه، ص٤٨.

14 المرجع نفسه، ص٤٨ و٤٩.

15 أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ط١، ١٩٦٧، ص١١٢-١٢٢.

16 المرجع نفسه ص٢٠٢ و٢٠٣.

17 عبدالجبار القاضي أبو الحسن، المغني في أبواب التوحيد والعدل، كلام مأخوذ من عبدالسلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا / تونس، ١٩٨١، ص٢٨٩.

18 عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص٥٥٤.

19 تبين لنا من خلال كثير من المصادر أنه تمت الإشارة إلى كثير من وظائف الكلام:

- التعبير: «أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» الخصائص، م.سا، ص٣٢٠.

- الإفادة والاستفادة: «ليس المقصود من الكلام النطق فقط بل المتكلم يقصد أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل به عليه دلالة وثيقة» المقدمة، م.سا، ص٥٨.

«لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم بعضا على تحصيل المنافع وإزاحة المضار وإلى استفادتهم حقائق الأمور وإفادتها، وجب

أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب أو الاستفادة منه» أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٦، ص٣٤٤.

- الإخبار: «وإذا ثبت أن الخبر وسائر معاني الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرفها في فكره ويناجي بها قلبه ويرجع فيها إليه فاعلم أن الفائدة في العلم بها واقعة من المنشئ لها، صادرة عن القاصد إليها وإذا قلت في الفعل إنه موضوع للخبر لم يكن المعنى فيه أنه موضوع لأن يعلم به الخبر في نفسه وجنسه ومن أصله وما هو، ولكن المعنى أنه موضوع حتى إذا ضممته إلى اسم عقل منه»، عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، وقف على تصحيح طبعه وعلق على حواشيه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٤، ص٣٥٥.

- الإفهام: «ما من أحد إلا وهو إذا عبر عما في نفسه بلغ غرضه في إفهام السامع عنه ما يريده على حسب استطاعته وما تساعد عليه آلاته»، رسائل إخوان الصفا، عن عبدالسلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، م.سا، ص٥٠.

«والإفهام إفهامان: رديء وجيد. فالأول لسفلة الناس، لأن ذلك غايتهم. وشبيه برتبتهم في نقصهم. والثاني لسائر الناس، لأن ذلك جامع للمصالح والمنافع. فأما البلاغة فإنها زائدة على الإفهام الجيد، بالوزن والبناء، والسجع، والتقفية، والحلية الرائعة، وتخير اللفظ، وإحضار الزينة بالرقة والجزالة والحلاوة والمتانة»، أبو حيان التوحيدي، المقابسات، تحقيق علي شلش، دار المدى، ط١، ١٩٨٦، ص٩٢.

- التواصل «إن الكلام الذي يراد به استصلاح العامة واستجماع الكافة، لا بد من أن يكون مرة مبسوطا، ومرة موجزا، ومرة مستقصى بالإيضاح والإفصاح، ومرة مجموعا بالرمز والتعريض، ومرة مرسلا على الكتابة والمثل، ومرة مقيدا بالحجج والعلل، وعلى فنون كثيرة لا وجه لاستيفائها» المرجع نفسه، ص١٦٤.

20 أفرد عبدالسلام المسدي لهذه الخصائص الفصل الثالث الموسوم بـ «مقومات الكلام» في التفكير اللساني في الحضارة العربية، المرجع نفسه، ص٢٤٦ - ٢٦٣.

21 ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، م.سا، ص٢٩٠.

22 ميخائيل باختين «اتجاهان في الفكر الفلسفي - اللساني»، في الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد البكري، يمنى العيد، دارتوبقال، ط١، ١٩٨٦، ص٦٣- ٨٤.

23 وفي هذا الصدد بين فرديناند دي سوسير أن العلم الذي يهتم بالوقائع اللغوية مر بثلاث مراحل:

١- النحو المعياري المشيد على المنطق هو مادة معيارية، تسعى فقط إلى تقديم قواعد لتمييز الصواب من الخطأ.

٢- لقد سبق أن ظهرت بالإسكندرية مدرسة فيلولوجية. لكن الفيلولوجيا بوصفها حركة علمية لم تنشأ إلا على يد فردريك أوجست ولف Friedrich August Wolf سنة ١٧٧٧. وهي لا تعتبر اللسان موضوعها الوحيد، بل ما يهمها هو التأكد من نسبة النصوص، وتفسيرها، والتعليق عليها، وربطها بالتاريخ الأدبي، والتقاليد، والمؤسسات.

٣- تبدأ المرحلة الثالثة إبان الاضطلاع بمقارنة الألسن فيما بينها. وهذا ما مهد لظهور الفيلولوجيا المقارنة أو النحو المقارن سنة ١٨١٦. فحدد فرانز بوب Franz-Bopp العلائق التي تجمع بين السانسكريتية واللغة الألمانية في كتابه الموسوم بـ «نظام الصرف في السانسكريتية». ومع ذلك لم يكن له فضل السبق إذ سبقه المستشرق الإنجليزي و.جونز W.Jones، ثم بعده ظهر باحث متميز يعقوب كريم Jacob Grimm، فاصدر ما بين سنتي ١٨٢٢-١٨٣٦ كتاب النحو الألماني، وكان له الفضل في إرساء

دعائم الدراسات الألمانية. وهناك أسماء أخرى في هذا المجال، نكتفي منها بذكر - على وجه التمثيل - بوت Pott، الذي انكب أساسا على البحوث الاشتقاقية، وكوهن Kuhn، الذي اهتم بالعلاقة بين اللسانيات والفيلولوجيا المقارنة.

انظر في هذا الصدد إلى:

F.de Saussure, Cours de linguistique générale, Payothéque, pour la nouvelle édittion, PP 13/19.

24 ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، م.سا، ص٧٩.

25 Geneviève Chauveau, La linguistique, Encyclopédie Larousse, 1977, P 40.

26 L. Hjemslev, "Langue Parole" in Essais lingusitiques, Minuit, 1971, pp 79/90.

27 Oswald Ducrot, Tzvetan Todorov, "Langue et Parole" in Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, 1972, p158.

28 J. Moeschler, Argumnentation et Conversation, éléments pour une analyse pragmatique du discours, Hatier, 1985, p15.

29 ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، م.سا، ص١٠٩ و١١٠.

30 المرجع نفسه، ص ٨١.

31 المرجع نفسه، ص ٢٣.

32 المرجع نفسه، ص ١١٠.

33 المرجع نفسه، ص ١٣.

34 ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الأمان، ط٢، ١٩٨٧، ص٩٠.

35 المرجع نفسه، ص ٨٩.

36 رولاند بارت، الدرجة الصفر للكتابة، ترجمة محمد برادة، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط٣، الرباط، ١٩٨٥.

37 G.Genette, "Discours du fécit essai de méthode", in Figures III, Seuil, 1972, p191/193.

38 انظر في هذا الصدد: كرستيان أنجليت CH. Angelet وجان هرمان Jan Herman «السرديات»، في نظريات السرد من وجهة نظر إلى التبئير، ترجمة ناجي مصطفى، دار الخطابي للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٩، ص١١٠.

39 D. Cohn, La transparence intérieure Modes de représentation de la vie psychique dans le roman, Traduit de l'anglais par Alain Bony, Seuil, 1977, p96.

40 Pierre Van Den Heuvel, Parole Mot Silence, Pour une poétique de l'énonciation, JoséCorti, 1985, p155.

41 Ibid p49

42 Ibid P 67

43 Lane Mecier (G), La parole romanesque, Klincksieck, 198- P 320.

44 Ibid, P104

45 Ibid, P320

46 Ibid, P303

47 Godfrey Howard, Comment dire, Traduit et adapté de l'anglais par Liliane Charrier, First, 1991.

48 Pierre Bourdieu, Ce que parler veut dire, L'économie des échanges linguistiques, Fayard, 1982, pp 59/60.

49 Ibid p110/111.

50 هربرت أ.شيللر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبدالسلام رضوان، عالم المعرفة، العدد ٢٤٣، الإصدار الثاني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٩/٥٦ - أبو محمد عبدالله بن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، م.س ص٤٤.

51 عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، م.سا ص٥٦٢.

52 في هذا الصدد لا بد من الإشارة إلى أن سعيد يقطين تحوط من استعمال مصطلحات (على نحو الأدب والنص) لم يتحدد وضعها الاعتباري إلا في العصر الحديث، وهذا ما حفزه على استخدام مصطلحات تراثية تؤدي الوظيفة نفسها تقريبا. وهكذا بحث في الكلام العربي في ذاته وصفاته وعلائقه لإقامة تصور لدراسة الأجناس والأنواع والأنماط. وضمن هذا التصور حدد الأجناس الكبرى للكلام العربي (الشعر والحديث والخبر) انطلاقا من صيغتي الكلام (القول والإخبار)، وبالنظر إلى الأداة (شعرا ونثرا)، وإلى وضع صاحب الكلام (المتكلم والراوي). وفي التجليات أكب على جنس واحد وهو السرد (بدلا من الخبر) بوصفه اسما جامعا (الجنس) لمختلف أنواع الكلام الذي يتحقق بواسطته، وداخله حدد نوعا محددا وهو السيرة الشعبية للبحث في حكائيتها وسرديتها ونصيتها.

انظر في هذا الصدد سعيد يقطين. الكلام والخبر مقدمة في السرد العربي، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٧.

ثبت المصطلحات

Actant (actanciel	عامل (عاملي)
Acte de langage (de parole)	الفعل اللغوي (فعل الكلام)
Anti-manipulation	التطويع المضاد
Attente(s)	التنظر (ات)
Centrifuge	نابذ (من المركز)
Centripéte	جابذ (نحو المركز)
Co-énonciateur	المتلفظ المشارك
Compétence	الكفاية
Contraintes	قيود، إرغامات
Contrat Enonciatif	العقد أو الميثاق التلفظي
Conversation	المحادثة
Crise fiduciaire	أزمة استيثاقية (أزمة ثقة)
Enoncé	الملفوظ
Enonciation	التلفظ
Idéologéme	عينة أيديولوجية
Immanentisme	النزوع المحايث
Langue	اللغة
Langue	اللسان
Manipulation	التطويع
Norme	المعيار
objectiviste	موضوعاني
Panoplie	شكة، ترسانة
Parodie	المحاكاة الساخرة
Parole	الكلام
Performance	الإنجاز
Pico-roman	الرواية التشكيلية
Pragmatique	التداولية
Roman monologique	رواية أحادية الصوت (مونولوجية)
Roman polyphonique	رواية متعددة الأصوات
Schéma	الخطاطة
Simulacre(s)	الشبيه (ج الشّباه)
Stylisation	الأسلبة
Subjectivste	ذاتوي
Translinguistique	العبر - لسانية
Usage	الاستعمال